المحاضرة الثّانية: -الاتجاه التّاريخيّ في الرّواية العربية

محتوى المحاضرة:

- مقدّمــــــــة.
- علاقة الرّواية بالتّاريخ
- السّرد الرّوائي وطرائق تخييل المرجعي
- التّاريخي في الرّواية العربية

أهداف الدّرس:

يتوقّع من الطّالب في نهاية هذا الدّرس أن يكون قادرا على:

- التّفريق بين السّرد الروائي والسّرد التاريخي.
- التّعرّف على طرائق تخييل المرجعي.
- الاطلاع على بعض الرّوايات التّاريخية.
- الاطلاع على أعلام الرّواية التّاريخيّة.

المراجع:

- عبدالسلام أقلمون، الرواية والتاريخ - سلطان الحكاية وحكاية السلطان.
- فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ – نظرية الرواية والرواية العربية.
- بول ريكور، الزمان والسرد - الحبكة والسرد التاريخي، تر : سعيد الغانمي / فلاح رحيم.
- جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم.
- محمد القاضي، الرواية والتاريخ - دراسات في تخييل المرجعي.
- عبد الفتاح الحجمري، هل لدينا رواية تاريخية،؟
- إبراهيم الفيومي، قراءات نقدية في الرواية العربية.
- عبدالله إبراهيم، التخيل التاريخي (السرد الإمبراطورية والتجربة الاستعمارية.

المحاضرة الثّانية: -الاتجاه التّاريخيّ في الرّواية العربية

لقد أخذت التّخوم التي انصهرت فيها الرواية مع التاريخ، ليشكلا مادة تخييلية جامعة، حيزا معتبرا من كتّابات النقاد، فسلّطت الأضواء على هذا التلاقح الذي سعى جميع المهتمين به إلى استشفاف طبيعة الحدود فيه، بين ما هو حقيقي وما هو تخييلي، وذلك تأسيسا على رؤية تفرق بين ما يهدف إليه التاريخ حين سعيه إلى محاكاة الماضي بمقاربة أحداثه ووقائعه علميا، وهدف الرواية المخيلة للتاريخ التي جاءت بفنّيتها لتفيد مما حفظه لها هذا الماضي متوسلة لأجل ذلك خطابا سرديا تخييليا متصلا بالخطاب التاريخي، باعتباره سندا جاهزا وسابقا يدعم نصها ويسهم في تشكيل البنية وتوجيه الدلالة، ومنفصلا عنه في الوقت نفسه بالنظر إلى ما يميّز الرواية من خصوصيات بنيوية ومعنوية.

وبالتّصالب مع هذا الطرح تقتضي المنهجية من الباحث قبل حديثه عن الرّواية العربية المخيلة للتّاريخ أن يقف أمام سؤالين اثنين؛ الأوّل يتعلّق بالتّعالق بين ما هو روائيّ وما هو تاريخيّ والثّاني سيبحث في السّرد التّاريخي وطرائق تخييل المرجعي.

أ - علاقة الرّواية بالتّاريخ

لما كان التاريخ نزاعا إلى الواقع، قادرا على إعادة تصوير الزمن بصورة تعكس سعيه للوصول إلى موضوعية مجردة تضارع موضوعية العلوم التجريبية، فإننا نجده قد اعتُبر من طرف بعض المهتمين به "خطابا سحريا له منهج قار في استقصاء الحقائق ومعاودة تكرار الماضي، كما هو، في لفظ التأريخ ثانية بعد وقوعه في الواقع أولا ليقابل بموضوعية طرحه خرافية الحكي والقصة، وبالحقيقة التي يبتغيها الرواية والخيال [(1)]، فتبدى بذلك "للمدافعين عنه أو للمنتسبين إليه علما موضوعيا مبرأً من الأهواء والمصالح، له أسانيده ووثائقه والجهود المتعدّدة التي أنتجت مناهجه، إلا أنّ هذا المنظور الذي يريد أن يكون موضوعيا، يصيبه الارتباك لأكثر من سبب[(2)]، ولعل أبرز هذه الأسباب أنّه علم لم يستطع التّخلص من "الإيديولوجيا ونزعاتها، فكل فريق يريد الحقيقة إلى جانبه، بمعنى أنّ كلّ فريق يريد أن يستدلّ على نفسه بالتاريخ وعندما يتحوّل التاريخ إلى حجة مصنوعة، فإنّ العلمية فيه لن تكون شيئا آخر سوى صناعة

[1]- ينظر: عبدالسلام أقلمون، الرواية والتاريخ - سلطان الحكاية وحكاية السلطان، دار الكتّاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، ط1 2010، ص: 09.

2-فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ – نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط1، 2004. ص: 82.

التاريخ[3]، لذا كان التاريخ علما سلطويا تحكم فيه ثنائية النصر والهزيمة[4]، فالمنتصر هو من يكتب التّاريخ وينظر إلى الماضي نظرة استعلاء واستكبار ويوقع الهزائم لغيره بأيّ صورة أراد، هذا وإن أضفنا طبيعة الوقائع البائدة في بناء معمار الماضي الذي يستحق الاستحضار وإشكالية تصنيف الوقائع، ولغة الوثائق وعوائق فهمها وتفسيرها ... خلصنا إلى أنّ علمية التّاريخ من هذا المنظور ليست إلّا مطلبا عزيزا وأفقا كلّما أبصر ابتعد، وجاز لنا القول مع (بول ريكور) إنّ "الماضي هو ما حدث فعلا، بعيدا عن متناول المؤرخ "[5].

وفي هذا السياق، نلحظ أنّ التّاريخ وهو يتوسّل السّرد لنقل الوقائع والأحداث الإنسانية يمتدّ إلى تخوم متباينة يسوغ فيها لنفسه ترصيع عالمه بالحكايات والأخبار والطرائف، "فيكشف بين الفينة والأخرى عن هوية ثانية توازي طبيعته الوقائعية[6] ، وهو الأمر الذي حدا بمجموعة من الباحثين إلى طرح إشكالية نزوعه إلى الموضوعية بشكل أكثر حدّة، فحين ميزوا بين الواقعة التي حدثت وبين الخطاب الذي يحاول توصيفها، وحين اهتموا بالمسافة القائمة بين الماضي المستحضر وبين طريقة استحضاره، وجدوا أن تدخل المؤرخ الراوي، وتعدّد زوايا نظره، قد جعل علمية التاريخ تلتبس، وهويته تتداخل وهويات فنية حكائية أخرى، شكلا ومضمونا، هويات لطالما حاولت مثله العودة إلى الماضي لاستكنابه، بل حتى لنقده ومساءلته، مسلّطة الضوء أكثر فأكثر على علميته وقدرته على نقل الحقائق كما جرت في الواقع. والرواية على رأس هذه الفنون الحكائية، وتسبيقها على غيرها من فنون الحكي مرده طبيعتها المتفردة النازعة إلى مشاكلة الزمان والمكان لسرد ما كان أو ما كان يمكن أن يكون.

إنّ عباءة السّرد جعلت الرّواية وهي النص الجامع للفنون والبوتقة التي تنصهر فيها الكثير من الأجناس، والرّافد لشتى المعارف الإنسانية، تنصرف إلى التّاريخ بما هو خطاب سابق عنها لتعزّز علاقتها به ولتقيم معه شراكة نفعية تثبت من خلالها عمق العلاقة بينهما، وقد تبدت هذه الشراكة لأول مرة بطريقة فنية احترافية - حسب النقاد - في رواية الإنجليزي والتر" سكوت" (1832-1771) "ويفرلي"

---

[3]- عبد السلام أقلمون، الرواية والتاريخ، ص: 13.

[4]- ينظر : فيصل دراج الرواية وتأويل التاريخ. ص: 82 وما بعدها.

[5]- بول ريكور، الزمان والسرد - الحبكة والسرد التاريخي، تر : سعيد الغانمي / فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان ط1،2006،.ص: 157.

[6]- عبد السلام أقلمون، الرّواية والتّاريخ. ص: 101

عام 1814[7]، "والذي وفّق في الجمع بين الشخصيات الواقعية والشخصيات المتخيلة، وأحلّها في إطار واقعي، وجعلها تتحرك في ضوء أحداث كبرى اعتبرتها المصادر مفاصل أساسية في مسار الأمم والدول"[8]، لتكون بذلك رواية "سكوت" من الرّوايات الطّليعية التي احتفت بالتّاريخ وضمّته إلى نسيجها الدّاخلي.

والخطاب التّاريخي شأنه شأن الخطاب الرّوائي؛ "خطاب سردي بالدّرجة الأولى، ومهمّا بالغنا في إسباغ البعد المرجعي عليه فإنّه يظلّ خطابا منجزا في مقام محدّد تتحكم فيه اعتبارات شتى توجهه وتضيء مسالك قراءته. وكذا الشّأن بالنّسبة للرّواية، فهي وإن بدت لنا خطابا تخييليا، لا تنقطع صلتها بالمرجع انقطاعا تاما"[9]، وهو ما فتح باب التفاعل والتّشارك بينهما، إذ صار "بإمكان الرواية أن تستقبل مواد تاريخية لتشييد كيان سردي دال فنيا، وبإمكان التاريخ أن يستفيد ما يحتاجه من مواد روائية لتشييد كيان سردي دال تاريخيا[10]، والنّتيجة أنّ التّخيل يستعير من التّاريخ والتّاريخ يستعير من التّخيل، وهو ما ولد لهما مرجعية متقاطعة، عبرها تكسب الخاصية السردية الفعل الإنساني زمنيته بوصفه مبدأ منظّما لتجارب الواقع وعوالم السرد[11].

بالرّغم من هذا الاتفاق، إلّا أنّ الإقرار بأنّ الخطاب الرّوائي أكثر تحرّرا من الخطاب التاريخي في علاقتهما بالذاكرة الجماعية لا مناص منه؛ لأنّ الروائي يملك سلطة التخييل اللامحدود، كما أنه يملك القدرة على السكوت عما بدا له أمرا يستدعي الصمت، وبالمقابل يركز على ما يعتقد أنه مهم تركيزا يوافق رؤيته فيهب هذه الذاكرة للقارئ في حكي ميسور، وسرد مستساغ، يختار هو مادته وينتقيها دون أن تفرض نفسها عليه، فـ "الرواية تعود بين الفينة والأخرى لتستلهم من أحداث التاريخ حكاية تسقط عليها قضيتها المركزية وتدعو إلى الاعتبار[12]، وبذلك يكون الرّوائي أكثر حرية في اختياراته للمادة التاريخية

7- ينظر: جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. مصر، ط2، ص11.

8- محمد القاضي، الرواية والتاريخ - دراسات في تخييل المرجعي، دار المعرفة للنشر، تونس، ط1، 2008، ص: 24.

9- المرجع نفسه، ص: 18.

10- عبد السلام ،أقلمون، الرّواية والتاريخ. ص 102.

11- ينظر: عبد الفتاح الحجمري، هل لدينا رواية تاريخية؟ مجلة فصول، القاهرة، المجلد16، ع03، 1979م، ص64.

12- عبد السّلام أقلمون، الرّواية والتّاريخ. ص: 316.

وطريقة سردها، فتنشأ الرّواية "منطوية على واقع محتمل ينفي القائم ولا يعيد إنتاجه ويوحي بأنّ الواقع يوجد في صيغة الجمع ويتشكل بلا انقطاع من دون أن يلتقي بشكله الأخير أبدا"[13]. أمّا بالنسبة للمؤرّخ فهو لا يمتلك كل هذه السلطة، وإن أرادها لنفسه كانت في حدودها الدنيا، لنزوعه إلى الحقيقة أكثر، ولانتظار القارئ ذلك منه، فالمؤرخون يوجهون خطابهم إلى قراء متشككين يتوقعون منهم ليس السرد فقط لكن إثبات صحة سردهم[14]، وهو ما يعفى منه الروائيون ولا يطالبون به فالإثبات ووسائله من مقتضيات عمل المؤرخ، أما الروائي "فله أن يروي كل ما يمكن أو يحتمل أن يحدث، وبذلك فمجاله أرحب في التعامل مع العموميات"[15].

إنّ الانتقال الرّوائي من التّاريخ المعلوم المجرّد إلى التّاريخ التّخييلي يجعل الرّوائي مصدرا لنصوص تخيل الوقائعي، فيبحث القارئ فيها عن الدلالات المعرفية الخفية الإنسانية والحضارية والتي لا يظهرها النص على مستوى المادة التاريخية المقدمة وحسب بل يتجاوزها إلى مستوى أعمق ممثلا في البنية السردية والتي تحمل دلالاتها الخاصة المتشكلة من الانصهار الحاصل بين الخطابين التاريخي والروائي الخطابان اللذان انفتقا من رحم السرد، وذلك وفق رؤية المبدع لهذا الحاضر. وهو ما يؤسس لسؤال التّعالق النصي الحاصل بينهما والمتضمن سؤال الكيف وسؤال الدلالة.

ب - السّرد الرّوائي وطرائق تخييل المرجعي

ينشأ المتخيل التّاريخي في منطقة تتوسط التّاريخ والخيال، حيث تنصهر خصائص كل منهما لتعطينا تشكيلا روائيا جديدا، بمكونات سردية تجمع بين عموميات الوقائع التاريخية التي حفظها التاريخ المعلوم وبين الخيال الروائي المهتم بسرد التفاصيل، وذلك في ظل "حبكة تتكفل بامتثال المواد التاريخية لشروط الخطاب الأدبي، وتضمن انفصالها عن سياقاتها الحقيقية واتصالها بسياقات مجازية فابتكار حبكة للمادة التاريخية هو الذي يحيلها إلى مادة سردية. وما الحبكة إلا استنباط مركز ناظم

13- فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ، ط2، 2002، ص: 145

14- بول ريكور، الزمان والسرد - الحبكة والسرد التاريخي. ص: 277.

15- إبراهيم الفيومي، قراءات نقدية في الرواية العربية، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، عمان - الأردن، ط1، 2001، ص: 19.

للأحداث المتناثرة في إطار سردي محدّد المعالم "[16]. ولما كان كل تصوير سردي يتضمّن بالضرورة إعادة تشكيل لتجربتنا الزمنية فإنّ الحبكة وفق هذا التصوّر هي تشكيل وصياغة لتجربتنا في هذه الحياة عن طريق زمن نصيّ[17]، فإذا كانت تجربتنا في الحياة ومكتسباتنا التاريخية متضاربة في أساسها، فإنّ السرد يوفّق بينها مستخدما في ذلك صيغا تعبيرية منسجمة، فيعيد تصوير الزمن مرّة أخرى، رابطا ،حلقاته سادا ،فراغاته مستعيرا من الحياة مادته والتاريخ جزء منها ليحوّلها نصا متسقا متشابكا عن طريق الحبكة.

يقتضي الحبك المخيّل للتاريخ من الروائي العودة إلى عالم الوقائع لأنّ تأليف نصه يقوم أساسا على "فهم قبلي لعالم الفعل، وبناه ذات المعنى، ومصادره الرمزية، وطبيعته الزمنية"[18]، لأنّ إعادة تشكيل زمن تاريخي معين بوساطة زمن متصوّر، هو زمن النص الروائي، يجب أن تكون مؤسسة ومؤطّرة برؤيا واضحة مستمدة مما خيره الروائي حين تقصيه الأخبار ومعاينته للأحداث بعد ضبطها زمنا ومكانا، وإلا لم يستطع توصيف ما حدث إن أراد المحاكاة أو مساءلته واستقراءه إن أراد ملأ فجواته، أو تجاوزه حتى، ولذلك كان تخييل التاريخ أمرا ذا مشقة بالنسبة للروائي الذي لم يستطع تشكيل رؤية واضحة للأحداث التي يريد تخييلها، أو لم يستطع الإحاطة بكل المرجعيات التي تؤسس لها، وذلك بالرغم مما يقدمه التاريخ المعلوم من مادة شبه جاهزة تنتظر الحبك.

تنطلق الرّواية المخيلة للتّاريخ من الخطاب التّاريخي، إلا أنّها لا تفتأ وترفض سلطانه، في "لا تستنسخه بل تجري عليه ضروبا من التحويل حتى تخرج منه خطابا جديدا له مواصفات خاصة ورسالة تختلف اختلافا جذريا عن الرسالة التي جاء التاريخ مضطّلعا بها[19]، وهو تحويل يتّكئ في عمومه على ما يتمتّع به الرّوائيّ من حرية في اختيار وتشكيل مادته الحكائية المرجعية.

---

[16]- عبدالله إبراهيم، التخيل التاريخي (السرد الإمبراطورية والتجربة الاستعمارية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط1، 2011م. ص: 06 (بتصرّف).

[17]-ينظر: بول ريكور الزمان والسرد - الحبكة والسرد التاريخي. ص: 16.

[18]- المرجع نفسه، ص: 98.

[19]- محمد القاضي، الرّواية والتّاريخ، ص87.

بالنّظر إلى المدّة الزّمنية التي يختارها الرّوائي لتغطية ما أراده من أحداث نجد أنّ النّص الرّوائي يأخذ أحد شكلين زمن الحقبة القصيرة للحدث، وزمن الحقبة الطويلة [20]، فهو يظهر تارة محدّدا بفترة قصيرة قد لا تتجاوز عقدا من الزمن، وتارة أخرى يمتد لأكثر ذلك حتى يزيد على القرن في الأحيان "ليشمل أحوال الحضارات ومدياتها البعيدة[21] ، وبناء على أحد الخيارين يتّحدد عدد الشخصيات وعدد الأمكنة وطبيعة الأحداث المنتقاة وما إلى ذلك من مقتضيات السّرد.

وبالنّظر إلى طبيعة تشكيل المادة التاريخية في حد ذاتها داخل النص الروائي فإننا نشهد تقسيما آخر، إذ هناك روايات تستدعي وقائع وشخصيات تاريخية وأماكن حقيقية مستقلة عن العمل الروائي فيظهر التاريخ فيها عن طريق نصوص تحيل إلى المرجع وتقوّي صلتها به، بينما أخرى تكتفي باستحضار "مناخ تاريخي تضطلع فيه شخصيات لا تاريخية بأعمال متخيّلة "[22] في أماكن قد يكون لها وجود خارج النص، فيتضاءل حضور التاريخ فيها ويخفت صوت الماضي ليظهر على ألسنة الشخصيات بين الفينة والأخرى.

وسواء أظهرت هذه المادة بشكل جلي مصرح به أم بصورة خافتة، مثلما تمت الإشارة إلى ذلك، وسواء أغطت الرواية مدة زمنية طويلة أم مدة قصيرة، فهي إن نظرنا إليها من خلال التعالق النصي باعتبارها نصا لاحقا لنصوص تاريخية سابقة، نجدها بعد أن تعلن استنادها إلى حوادث ماضية دونها السابقون، وبعد أن تعلن استمدادها لوجودها من الدوران حول النصوص الماضية، مما يكتف صلتها بهذه الوقائع"[23]، تبدأ في تشكيل هذه المادة بما يتواءم وطبيعتها، فتعيد تمثيل الوقائع الكبرى على نحو قريب مما أوردتها نصوص التاريخ[24]، وذلك بالجمع "بين شذرات من الخطاب جاءت شتّى في التاريخ"[25].

20- المرجع نفسه، ص: 279.

21- بول ريكور، الرمان والسّرد، الحبكة والسّرد التّاريخي، ص279

22- محمد القاضي، الرّواية والتّاريخ، ص87.

23- عبدالله إبراهيم التخيل التاريخي. ص: 09. (بتصرف).

24- ينظر: المرجع نفسه، ص: 104 وما بعدها.

25- المرجع نفسه، ص: 106.

وهو ما يعني عودتها إلى التاريخ وأخذها منه قصاصات بلفظها ومعناها، بإشارة إلى ذلك أو دون إشارة، لكن بطريقة لا تظهر نشازا بين سابق ولاحق تحت مسمى "اللصق"، أو أن تلجأ إلى التفصيل في الحادثة التاريخية والتي ترد عند المؤرخين مجملة في صيغة لفظية محددة الطول[26]، فتنصرف إلى سرد التفاصيل بطريقة تشغل الخيال فيأتي الراوي على ذكر طبائع الشخصيات وسماتهم، ويدخل تفاصيل تبرز قيمة الحدث، وتوصيفات مختلفة للمكان، تحت مسمى "التوسع"، أو أن تمر على فترات تاريخية طويلة مروراً سريعاً بإشارات لغوية مقتضبة "لعرضها مركزة بكامل الإيجاز والتكثيف"[27]، تحت مسمى "الإيجاز"، أو بالقفز" على فترات زمنية والسكوت على وقائعها[28]، تحت مسمى "الحذف".

وأهمّ ما ينبغي التّأكيد عليه في هذا المقام هو أنّ تمثّل السّرد الرّوائي للتّاريخ، يهدف إلى نقد الواقع وتجاوز معطياته، بآليات سردية تعتمد استراتيجيات وطرائق مختلفة للوصول إلى أفق يحقق فيه التاريخ المعلوم مساره، كما تتحقق إنتاجية النص تبعا لإمكانيته في استثمار عناصر التاريخ وجعلها وسيلة لفهم الحاضر ومحاولة تجاوزه، ويتأتى ذلك عبر مراحل ثلاث؛ الأولى هي مرحلة الانتقاء، حيث ينتقي الروائي مادته مركزا على ما يخدمه محدّدا الأطر الزمانية والمكانية لهذه الوقائع، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة التخييل، وفيها تمازج المادة المرجعية - بعد أن تُعزل عن نصوصها الأصلية بالنص الروائي وفق طريقة من الطرائق الآنفة الذكر، ليصل هذا التمازج إلى مرحلته الأخيرة، هي مرحلة القراءة والتأويل، وتأتي بعد أن يأخذ التاريخ شكلا جديدا داخل بنية نصية جديدة، فيبتعد ساعتها عن الفكر الأحادي والإرغامات الإيديولوجية التي كان يمنّى بها داخل خطابه الأم ليستقر بمعناه الجديد في نصّه الروائي المنفتح بعلاقاته التأويلية مع القارئ.

ج-التّاريخي في الرّواية العربية

لقد ارتبطت الرواية العربية بالتاريخ منذ نشأتها، فجاءت مشدودة إليه، تستقي مادتها منه بجرعات وطرائق مختلفة، مؤمنة بأنّها تعيش في زمن أقل ما يقال عنه أنّه زمن ضاعت فيه إنسانية العربي بتضييعه لقيمه التاريخية والتراثية، فكان لزاما عليها - من موقعها - تعرية الواقع وتتبع تغيراته بناء على

---

[26]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 105.

[27]- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط2، 2009، ص: 145

[28]- المرجع نفسه، ص: 156.

الماضي الذي اختارته سبيلا لتوطين الوجود، وحلّا لتفسير المبهم وعقلا متجذرا لإيجاد أجوبة للوضع الذي صار إليه العربي، والمستقبل الذي سيتصير إليه، فعادت إلى التاريخ العربي والإسلامي بمضامينه الحضارية والرمزية مستمدة منه مادة رأتها كفيلة بتحقيق ما تصبو إليه، وقد أسست لذلك مجموعة من الدوافع السياسية والاجتماعية والفكرية الحضارية والنفسية والقومية الوطنية وغيرها.

وإذا كان احتفاء الرواية الغربية بالتاريخ قد سبق الرواية العربية بالنظر إلى زمن نضوج فن الرواية عندهم، على يدّ كلّ من والتر" "سكوت (1771م/ 1832م) وألكسندر ديماس الأب" (1802م. 1870م) وغيرهما، إلا أنّ هذا لا ينفي إفادة الرواية الغربية من السرود العربية القديمة من هذا الجانب فتخييل التاريخ في النص السردي العربي لم ينتظر القرن التاسع عشر ليعلن ميلاده، فما روي عن عنترة وقيس، وحكاية الجازية، وذات الهمة، وزرقاء اليمامة، إضافة نصوص السير والتراجم وأيام العرب، كلها نتاجات حاولت تأبيد وقائع تاريخية فردية وأخرى جماعية كان لها موقع في نفوس العرب، فحظيت بمكانة مرموقة في الخزانة السردية العربية والعالمية. وإذا كانت الرواية الغربية قد عادت إلى هذه السرود.

وأفادت منها فإنّ الرواية العربية قد أفادت من الجانبين فاستنبتت من تربة غربية بعضا من فنيات توظيف المرجعي في رواياتها، بل وحتى وإن أخذت الفكرة عنها إن أردنا تأييد من ذهب إلى ذلك من النقاد [29] ، لكنها عادت في الوقت نفسه إلى تراثها واستلهمت منه شيئا من مادته التاريخية وطرائق التعبير، والعودة إلى رواياتنا العربية يكشف ذلك، فما كتبه سليم البستاني وجرجي زيدان وفرح أنطون وغيرهم يرصد هذا التلاقح والتناغم الفني في أعمالهم، بين ما هو عربي أصيل وبين ما هو غربي، وصولا إلى الرواية العربية المعاصرة التي أصبحت تؤمن بالجمع بين المختلف والمؤتلف، بين ما هو أصيل وما هو دخيل، أكثر من أي زمن مضى، وذلك على غير ما ذهب إليه "إكانتي كراتشوكفسكي "وبعض المهتمين بالموروث الأدبي العربي، حين قال في كتابه "الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث": "الرواية التاريخية لا تمثل هنا نموا عضويا للرواية العربية المنبثقة عن القرون الوسطى بقدر ما تمثل نباتا

[29]- اختلفت آراء النقاد المحدثين في جذور الرواية التاريخية وانقسموا في هذا الإطار إلى ثلاثة مجموعات: الأولى : يرى أن القصة التاريخية كانت تطوراً طبيعياً عن التراث العربي القصصي. الثانية: يقرر بأن القصة التاريخية هي مجرد صدى وفرع من فروع الثقافة التي جاءتنا عن الغرب في النهضة الحديثة. الثالثة: يرى أصحاب هذا الاتجاه أنّ الرواية التاريخية نشأت نتيجة مزاوجة بين التراث العربي القديم وبين ما جاءنا من الغرب.

مأخوذا من تربة أوروبية أعيد غرسه في حقل "عربي"[30]، وحجته في ذلك أنّ الرواية مظهر ثقافي استتبع كل مظاهر التبعية الثقافية العربية المجلوبة من الغرب، مغفلا جانبا مضيئا فيها يتعلّق بارتكازها على سرودها القديمة في أكثر من موضع فني، ناهيك عما أخذته الرواية الغربية عن هذه السرود في أطوار نشأتها الأولى.

وبالعودة إلى رواياتنا العربية وتاريخ اتصالها بوقائع الماضي، نجد أنّ كثيرا من النقاد قد أجمعوا على أن التأريخ للرواية المخيلة للوقائعي بشكل واضح ينطلق مما كتبه سليم البستاني بداية من "زنوبيا" التي صدرت سنة 1871 وبعدها بدور" سنة 1872 والهيام في فتوح الشام" سنة 1874م، لتردفها أعمال جرجي زيدان التي غطت ما كتبه البستاني كما وكيفا، فأصدر "المملوك الشارد" 1891م، "استبداد المماليك" 1892، "جهاد المحبين" 1895، عذراء قريش 1898 ، وغيرها من مؤلفاته الكثيرة تحت ما يسمى بسلسلة روايات تاريخ الإسلام (1891م-1914م) لتظهر بعدها نتاجات فرح أنطون، ويعقوب صروف، وأمين ناصر وغيرها من الأعمال[31] التي أرادت نشر التاريخ في شكل رواية، ترغيبا للناس في مطالعته والاستزادة منه.

جاءت هذه الروايات كلها وهي بمثابة نتاجات أولى لرعيل أوّل أوجد عتبة تاريخية روائية للأجيال المبدعة اللاحقة معتمدة على التاريخ في بناء حبكتها، قاصدة تمثيل الوقائع التاريخية تمثيلا يقترب من الحقيقة، فلا تُجاوزها إلى المساءلة والتحليل إلا فيما ندر، فتمثلت أحداثا تاريخية كانت في الرواية بمثابة المركز، أو بصيغة أخرى، قصة إطارا تدور في فلكها مجموع ما يقحمه الروائي من مادة مخيلة، قاصدة التعريف ببطولات السلف ومآثرهم للاقتداء بهم، وتغذية النزعة القومية والوطنية، فاتجه أغلب روائي هذه الفترة – في موقفهم من التاريخ - اتجاها واحدا، فانصرفوا إلى "ذكر النوابغ والأبطال، وعرض أمجادهم، ومآثرهم، والإشادة بمفاخرهم وبطولاتهم ومنها التعرض للمأثور من وقائع العرب، وإبرازها ناصعة مشرقة"[32]، وذلك بعد أن توضع المادة التاريخية في سياق مشوّق يستقطب القارئ،

30- إكانتي كراتشكوفسكي، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، تر: عبدالرحيم العطاوي، دار الكلام، الرباط - المغرب، ط 1 1989، ص: 20

31- ينظر: عبدالرحمن ياغي في الجهود الروائية ما بين سليم البستاني ونجيب محفوظ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان دط، دت ص: 159 وما بعدها.

32- نواف أبو ساري، الرّواية التّاريخية، بهاء الدّين للنشر والتوزيع، قسنطينة - الجزائر، ط1، 2004، ص: 27.

يقول جرجي زيدان بهذا الصدد: "أما نحن فنأتي بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها، ندمج فيها قصة غرامية، تشوّق المطالع إلى استتمام قراءتها، فيصح الاعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ، مثل الاعتماد على أي كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والأشخاص، إلا ما تقتضيه القصة من التوسع في الوصف مما لا تأثير له في الحقيقة "[33]، وهو ما يعني أنّ الروائي - وإن لم يصرح بذلك زيدان يصوغ المادة التاريخية صياغة جديدة فلا ينقلها كما هي في التاريخ، لكن يشترط في هذه الصياغة أن تحافظ على جوهر المادة التاريخية المعاد صياغتها في العمل الأدبي.

وبالنّظر إلى طبيعة تعامل هؤلاء الرّوائيين مع المادة التاريخية سجّل النقاد ظهور جيل ثان استلهم لحظات ومواقف قديمة من التاريخ العربي والإسلامي، وكان هذا "الاستلهام للأشكال والموضوعات التراثية والوطنية والاجتماعية والأخلاقية والعاطفية تجليات أدبية - بمستويات دلالية مختلفة – لإبراز الذات القومية في مواجهة الغرب[34] ،ومن هؤلاء عادل كامل وعبد الحميد جودة السحار ومحمد فريد أبو حديد وعلي أحمد باكثير وعلي الجارم وغيرهم، وقد صدرت روايات هؤلاء في مناخ ثقافي جديد، وسياقات خارج نصية مختلفة، تميز باحتدام الصراع العربي الغربي، وبظهور حركات التحرر وهو ما اقتضى رواية تتخذ لتخييل الوقائعي وسائلا جديدة تساوي بين ما هو متخيل وبين ما هو وقائعي، أو تكاد، كما أنها تركز في موضوعها على البطولات مستدعية التاريخ المجيد للأمة، الباعث على بث روح المجابهة، أو روح الانتشاء بالانتصارات المحققة لدى الدول العربية المستقلة، يقول محمد مندور عن بعض مؤلفات هذا الجيل: إنّ "الاتجاه التاريخي الذي ابتدأه جرجي زيدان، وجاء بعده فريد أبو حديد فجدد في معناه وحدّد من وسائله أوشك أن يخلقه خلقاً جديداً في "الملك الضليل" و "زنوبيا"، وتبعه في ذلك شاب ينبعث منه الأمل وهو علي أحمد باكثير كاتب "أخناتون " و"سلامة القس" و"جهاد التي نالت إحدى جوائز وزارة المعارف"[35].

---

[33]- جرجي زيدان، الحجّاج بن يوسف الثّقفي، مطابع الهلال، القاهرة، مصر، د.ت، ص39.

34- محمود أمين العالم، الرواية بين زمنيتها وزمانها مجلة فصول، القاهرة - مصر، مج 12، ع1، 1993، ص: 17.

[35]- محمد مندور، في الميزان الجديد، مكتبة نهضة مصر، القاهرة - مصر، دط، دت، ص: 39.

وبالرّغم من هذا العدد الوافر من الروائيين العرب الذين استلهموا نصوص التاريخ في فترة متقدمة، وبالرّغم من نتاجاتهم الكثيرة ،والمختلفة إلا أنّ سيرورة الأدب أوجدت جيلا ثالثا من الروائيين خلف الجيلين بنظرته المخالفة، جيل معاصر لا يكتب التاريخ من أجل كتابته بل يأتي به لكي يوظفه في سياقات نصية جديدة تحمله على البوح بما كان يخفيه أو على الأقل بغير ما كان يصرح به، مقدما قراءة واعية له، لا تنكر فضله لكن تسعى لتعريته من أي وثوقية أو تضليل، فلا ترتبط روايات هذا الجيل "بالتاريخ لتعيد التعبير عما قاله بلغة أخرى، بل ترتبط به للتعبير عما لا يقوله "[36]، فتسائله وتجاوزه في أكثر من موضع مستعيرة وقائع تاريخية في تخييل الحكاية الروائية معيدة تشخيصها "بتمثل انعكاساتها على الإنسان والمجتمع ... مع محاولة فهم الواقع والتفكير في وجوده بأفق متخيل اجتماعي وتاريخي قادر على المحاورة والانتقاد[37]، رافضة التصوّرات الأولى لتوظيف التاريخ في الرواية العربية بالمعنى الذي أشار إليه "زيدان وأضرابه من المؤسسين لهذا النمط من الكتابة، وكما جاراه في ذلك كثير من النقاد فهي تصورات حسبهم استنفدت طاقتها الوصفية بعد أن جرى تحويل جذري في طبيعة تلك الكتابة السردية التاريخية، التي استحدثت لها وظائف جديدة لم تكن معروفة آنذاك "[38].

وفي سياق داعم لهذه الفكرة أعيد النظر مرة أخرى من طرف الروائيين والنقاد في حدود التاريخ والمتخيل الروائي معتبرين الزمن الفاصل بين الروائي العربي المهتم بالوقائع التّاريخية يحفظ له الحق في التأمل بتمعن فيما سيخيله، وعندما قالوا بالتخييل قصدوا إخراج المادة التاريخية من دائرة الإيمان واليقين إلى دائرة العقل والشك، حتى وإن صار النص الروائي جزءا من الذاكرة الجمعية، وفعلا مؤسسا في نسق أكبر المرويات كبرى تحتفي بها هذه الذاكرة، فجاءت هذه الروايات بمنطق التجريب لتمثل منطلق هذا التحول الجديد في الرواية العربية الذي يحاكي بدوره الرؤية الحداثية للعالم، ومستهل تقديم التاريخي بعيدا عن المفاهيم الكلاسيكية للتاريخ المخيّل، ومن هؤلاء الروائيين نذكر: صنع الله ابراهيم وحنا مينه جمال الغيطاني، نجيب محفوظ، إدوار الخراط، الطيب صالح، بهاء طاهر، إبراهيم الكوني إميل حبيبي، الطاهر وطار، عبدالرحمن منيف واسيني الأعرج، أحلام مستغانمي ..... وغيرهم.

36- عبد الفتاح الحجمري، هل لدينا رواية تاريخية؟. ص: 63.

37- المرجع نفسه، ص: 65.

38- عبدالله إبراهيم، التخيل التاريخي. ص: 13.

وهم روائيون آمنت كتاباتهم بهذا التحوّل البنيوي والدلالي في توظيفها لمادة التاريخ فصنعت لنفسها شكلا جديدا يستأنس إلى التاريخ خدمة للنسق الفكري الذي تقوم عليه الرواية، فجاءت أعمالهم مخيلة للتاريخ "متحررة من الوثيقة ومستندة إلى تجارب تنتصر للممكن(39)، أكثر من انتصارها لما كان، أي أنّها انتصرت للخيال على حساب الواقعة التاريخية، وهو ما منح هذا الجيل مساحة كبيرة من الحرية خوّلت له سلطة التمييز والرفض والتصحيح والتحويل والتحوير، ناهيك عما منحته له من قدرة على بعث التاريخ المحظور، وإيراد التاريخ المغمور والنبش في ركام الوقائع فاستنطق هذا الجيل ظلال نصوص سلطوية، مُستشقا ما عكسته من هوامش ومن هزائم سكت عنها وطنيا أو قوميا، هذا إن لم يتجاوز بجرأة تحليلا وتأويلا هذا الجانب إلى الجانب المظلم من هذه الهزائم.

39- عبد الفتاح الحجمري، هل لدينا رواية تاريخية؟، ص: 64.